اسمع يا نافذ مات ابن يوسف باشا أتقدر ان تذهب غداً وتسير في جنازته فانا مشغول جداً وادهم لا يقدر ان يصل الى ايوب سلطان في الوقت لانهُ يتأخر في خروجهِ من المكتب

فقال نافذ بك نعم افندم اذا اردت

فقال نعم يا ولدي فان يوسف باشا صديق لنا ولا اريد ان يفتكر اننا نسيناهُ.

فاقفلت الشباك وانطرحت في سريري وحاولت ان انسى كل ما سمعتهُ

(ستأتي البقية)

معرض باريس العام

الباب الخامس عشر في سائر الصناعات

في هذا الباب تسعة فصول تختلف معروضاتها مما ثمنهُ مليمات قليلة الى ما ثمنهُ ملايين من الفرنكات كيف لا وقد عُرضت فيها اللعب والدُّمى واقلام الكتابة وعرضت ايضاً الساعات الثمينة والجواهر الكريمة وكل ما تتفنَّن الصاغة والجوهريون في صوغهِ وترصيعهِ

الفصل الاول منها في صنائع الورَّاق والكتَّاب . وقد يُظنُّ لاول وهلة ان هذا الفصل ضيق النطاق لان صناعة القلم من اضيق المعايش لكن الامر عند الاوربيين على غير ما هو عند الشرقيين . وقد كانت صناعة الوراقة والكتابة في بلاد المشرق قبلما عرفت الامم الشمالية شيئاً عنهما لكن بلغ تقدمهما عندنا حدَّهُ منذ نحو سبع مئة سنة ثم لم يزد عليهِ واما عندهم فبلغتا مبلغاً يفوق ما يتصوَّرهُ اهالي المشرق ولا غرابة في ذلك فان من عمرت دواوينهم بارباب الاقلام واتسعت متاجرهم حتى عمَّت الخافقين وبسم لهم وجه الزمان مئات من الاعوام وكاشفتهم الطبيعة باسرارها وساعدتهم العناية على كبح جماح الظالمين من ملوكهم وتقييدهم بقيود الدستور والشورى لحريُّون بان ترتقي الصناعات في يدهم وتبلغ اوج مجدها

ولقد ادرك الاوربيون حقيقةً طبيعية يجري عليها كل مخلوق حتى الجماد ولا يخالفها الاَّ كتَّابنا وهي اختيار اسهل السبل واقلها مقاومةً . فترى الماء يجري في طريقهِ حتى يجد ما يعيقهُ فيقف ويختار طريقاً آخر يسهل عليهِ الجري فيهِ. والريح تهب حتى اذا وجدت جداراً قائماً في طريقها حادت عنهُ وكذا عقل الانسان فانهُ ينبو عما يغتاص عليهِ ويرتاح الى ما يستسهلهُ لكنَّ كتَّابنا حفظهم الله لم يكتفوا باختيار كل غريب شارد من الالفاظ بل زادوا الطين بلةً ان عقدوا الحروف والكلمات في الكتابة والطبع حتى تجد العين اكبر مشقة في قراءة ما ترى كما يجد

العقل اكبر مشقة في فهم معناهُ . اما الاوربيون والاميركيون فجعلوا حروف مطابعهم واضحة مفصولة بعضها عن بعض لكي لا تجد العين اقل صعوبة في استجلائها ثم استنبطوا آلة للخط تكتب الحروف مفصولة واضحة كأنها مطبوعة طبعاً والكتابة بها اسرع كثيراً من الكتابة بالقلم اقتصاداً في الوقت وفي القوة العقلية . واستنبطوا وسائل كثيرة لنسخ النسخ الكثيرة مما يكتبون باسرع ما يكون من الوقت. وقد بحثت بين آلات الكتابة لعلي اجد بينها آلة للخط العربي فلم اجد لكني رأيت من آلات النسخ ما يمكن استعمالهُ في العربية. وقد دهشت مما رأيتهُ من الاثاث والرياش في امثلة مكاتب التجار والمحامين وما يلزم لها من ادوات الكتابة واجناس الحبر والاقلام . وهناك معرض تاريخي للكتابة وما يتعلق بها من اقدم عهدها الى الآن . واكثر العارضين في هذا الفصل من النساء لا من الرجال كأنهن عزمن ان يحتكرن صناعة طالما امتاز الرجال بها وجعلوها مرقاة الى السيادة .

وعُرضت في الفصل الثاني من فصول هذا الباب المسكاكين والمواسي واقلام الحفر والنقش وما اشبه والغرض من عرضها صناعي كما هو تجاري فانك ترى بينها مسكاكين قديمة تقابلها الذهب او العاج منقوشة مرصعة افرغ الصنّاع فيها مهارتهم ومثّلوا بها الاشكال البشرية والحيوانات المختلفة وتفننوا في نقشها على اساليب شتى. وبعضها قديم من القرن الماضي والذي قبلهُ الى القرن السادس عشر وقلما يتخطّاهُ الاوربيون اذا عرضوا بدائع صناعتهم . ولا ندري ما يقولونهُ عن ابناء المشرق ابناء مصر والشام والعراق وفارس حينما يستخرجون بدائع الصناعة من مدافن اسلافهم فيرون بينها الخناجر المرصّعة والقلائد المنسّقة والثياب الموشّاة ثم يلتفتون الينا فيروننا لا نصنع سكيناً ولا ابرة وما نصوغهُ ونسجهُ بسيط في صنعهِ ليس عليهِ لمحة من الجمال الاّ عند من يستحسن الغريب السادج ولو كان من اعمال الزنوج . لكن ابناء المشرق الاقصى لم يحلّ بهم ما حلّ بابناء المشرق الادنى من هذا القبيل فبقيت مصنوعاتهم في المكان الاعلى من الدقّة وحسن الصنعة. لان في عبادة الاصنام وعمل الصور والتماثيل وزخرفة الهياكل والمعابد مما يرغّب الصناع في اتقان التصوير والتمثيل وسائر الفنون اليدية. وفي النهي عن ذلك كله ما يميت اصول الصناعة وشواهد هذا كثيرة لا محل لسردها هنا ولذلك اقتصرت الصناعة العربية على رسم الخطوط والزوايا والاقواس وكان ملوك العرب اذا ارادوا النقش والزخرفة يجلبون الصنّاع من الروم فلا يتقنون لهم عملاً الاّ كما يتقن الاسير لآسره والعبد لسيده فماتت الفنون في البلاد التي نشأت فيها

وعُرضت في الفصل الثالث المصوغات من ذهب وفضة متاثر ومزاهر وكؤوس وابارين

وكل ما يصاغ من الحجرين الكريمين مما هو دقيق الصنعة لكنهُ فيهِ الصورة كالتماثيل التي على بعض المصوغات من معمل سنار بباريس فان فيها الغيلان والتنانين . الى ما جمع بين الجمال والدقة كمصوغات ميرس سوهن النمسوي فان فيها من تماثيل العذارى والولدان والازهار والاثمار ما جُمع فيهِ الحسن كلهُ . او الى ما جمع فيهِ الجمال والدقة والتفنن والنفع كما في مصوغات محل تفني الاميركي فانَّا رأينا منها ما يملأُ بيتاً كبيرًا من الآنية الفضية والذهبية من صحاف ومزاهر وابارين مختلفة الاشكال والاقدار وبعضها من البلور الطبيعي وقد افرغ ونقش نقشاً بديعاً ومن ذلك الكاس المعروفة بكاس ادمس وهي من الذهب الاميركي ارتفاعها نحو نصف متر مرصعة بكثير من الحجارة الكريمة التي توجد في اميركا ويمثَّل فيها نبات القطن من حين ظهورهِ الى ان يخرج القطن من كمائمهِ وتمدُّ السبائخ منهُ . الى ما توسط بين هذه الاشكال الثلاثة كالمصوغات الانكليزية التي صاغتها شركة الصاغة الانكليزية فانها ادخلت في مصنوعاتها تماثيل جامعة بين الجمال والغرابة فترى فيها افراس البحر خارجة من الاضداف وقد صارت قوائمها زعانف كزعانف الحيتان . والدلافين شائلة باذنابها كالعقارب وعيونها غائرة تحت اصداغها . وعرائس البحر تحمل المنائر على عوالقها وتتهلل بولادة الانهار وايلوس اله الريح عند اليونان ينفخ بالصور ونبتون اله البحر يصعد منهُ وغير ذلك مما شرحهُ مسطور في الخرافات اليونانية وللاوربيين ولع شديد بتمثيلهِ والعود اليهِ مرةً بعد أُخرى

واذا قلنا الذهب والفضة تصوَّرنا حالاً لونيهما الاصفر والابيض وعقالهما البرَّاق لكن الصنَّاع الاوربيين والاميركيين سئموا رؤية هذين اللونين المألوفين فلونوا الحجرين الكريمين بالوان شتَّى فترى الذهب مخضرًّا او مسودًّا والفضة سوداء او رمادية وكلهُ من باب طلب الغريب والبعد عن المألوف او من باب مراعاة النظير لان هذه الالوان يراعى فيها احيانًا ما يراد تمثيلهُ بالذهب والفضة من صور الناس والحيوانات والاسماك والاطيار والازهار والاثمار الى غير ذلك

ولم يكتفِ الصاغة بعرض مصنوعاتهم بل عرضوا مصنوعات بعض القدماء او ما يماثلها ومن ذلك الكاس الارلندية المعروفة بكاس ارداغ وهي مصوغة من الذهب والفضة منذ القرن العاشر للميلاد اي منذ تسع مئة سنة

وللفرنسويين النصيب الاكبر من هذا الفضل كما لهم من غيرهِ وقد ابدعوا في تلوين الذهب والفضة وتمثيل الناس والملائكة وعرضوا كثيرًا من مصوغاتهم القديمة من القرن السادس عشر فما بعدهُ

والفصل الرابع من فصول هذا الباب للحلي والجواهر . اين عقود الجمان وقلائد العقيان اين قرطا مارية وجواهر كليوباترا مما عرضهُ الاوربيون والاميركيون في هذا الباب . رأينا فيهِ عقدًا واحدًا من الدر فيهِ ست واربعون يتيمة تامَّة الاستدارة كالبندق حجمًا ثمنها تسعون الفًا من الجنيهات فثمن اللؤلؤة الواحدة منها الفا جنيه . وهناك ماسة كالجوزة الكبيرة منصوبة على سلك دقيق يدور بها دواماً ليرى الوقوف وجوهها كلها من غير ان يدوروا حولها وامامها ثلاثة من رجال الشرطة مسلحون لحراستها . وعُرض ما لا يقع تحت حصر من انواع الحلى من الاكاليل والعقود والقلائد والاقراط والسلاسل والدبابيس وهي مرصعة بافخر انواع الماس والياقوت والزمرُّد والفيروز وكل حجر كريم ممَّا حجمهُ كالبيضة فنازلاً الى ما لا تكاد العين تراهُ لصغرهِ ولا يظهر الاَّ لاجتماعهِ مع غيرهِ . ومما لونهُ عاديٌّ الى ما خالف اللون العادي وتشكل باشكال شتى فترى هناك الماس الابيض والاسود وكل الدرجات التي بين هذين الحدين والماس القرنفلي والبنفسجي والمصفرّ والمخضرّ والمزرقّ . وترى الياقوت المعروف بدم الحمام وغيرهُ مما يزيدهُ صفاء او كدرةً . واللؤلؤ الابيض والاصفر والرمادي والاسود وهو على اشكال شتى كروي وبيضي وكمثري وغير ذلك مما يطول شرحهُ

ولا مشاحة في ان منظر تلك الحلى جميل جدًّا سواء نُظر اليها من حيث جمالها الطبيعي والصناعي او من حيث تفنُّن الصنَّاع في نظمها وتنسيقها . ولا بدَّ من ان يخطر على بال المرء خواطر كثيرة حين يراها ككثرة الماس واللؤلؤ وقلَّة الفوائد من هذين الجوهرين الكريمين . وغنى الجوهر بين المفرط لان الواحد منهم قد يعرض من الحلى ما ثمنهُ ملايين كثيرة من الفرنكات . والفرق الشاسع بين طبقات الناس بين مَن تحلي رأسها باكليل ثمنهُ مئة الف جنيه وعنقها بقلادة ثمنها مئتا الف جنيه وبين مَن ترتدي اخلاقًا لا تستر عريها وتسلق الهندباء لصبيتها فلا تجد كفافهم منها

ولم يقتصر العارضون على عرض الحلى والجواهر في قسم الاثاثاليد بل عرضوا كثيرًا منها في شان دو مارس وفي قصور الدول المختلفة كما تقدَّم في الكلام على معروضات اللؤلؤ في قصر الحراج والصيد وكما سيجيء في الكلام على قصور الدول والمستعمرات

وان لم يستفد المرء من رؤية الحلى استفاد من رؤية المكان الذي تقطع فيهِ الحجارة الكريمة وتجلى وتصقل وتصاغ وهو هناك على يسار الداخل الى معرض الاثاثاليد وقد رأينا فيهِ حصى الياقوت والماس لا جمال لها ولا بريق فيها يأخذها الصانع ويلصقها بشيء يمسكهُ بيدهِ ويضعها على ثرس رشَّ عليهِ السنباذج او غبار الماس ويديرهُ دورانًا سريعًا جدًّا حتى لا تراهُ

العين دائرًا لشدَّة سرعته والمدير له الكهربائية التي صارت الآن خادمةً لكل الصنائع فيجلي ويصقل ويظهر نوره وبريقه

وكما عُرضت الجواهر الصحيحة عُرضت الجواهر الكاذبة وهذه لا تفرق عن تلك منظرًا مهما عظم الفرق بينهما قيمةً فالماسة التي ثمنها مئة الف جنيه تقلَّد بزجاجة او ببلورة ثمنها جنيهان او ثلاثة. واذا اريد بالجواهر مجرَّد الزينة فلا فرق بين الاثنتين ولذلك ترى كثيرات من النساء يضعن حلاهنَّ الصحيحة في خزائن الحديد مخافة ان تسرق ويتحلَّين بحلى مثلها كاذبة بخسة الثمن وذلك وحده كافٍ للحط من قيمة الجواهر ولكن من يستطيع ان يقاوم العادة والزي ما دام اصحاب المتاجر ومعامل الصياغة يعضدونها

والفصل الذي بعد هذا فصل الساعات ومعروضاته اكثر المعروضات عددًا ولا غرابة في ذلك لان الساعة من لوازم العمران وصنَّاعها يتفننون فيها دواماً حجماً وشكلاً ووضعاً وانتظاماً. ولا شيء تظهر فيه مهارة الصانع ودقة اليد وتدقيق الآلات كما تظهر في عمل الساعة ولوالبها وزنبلكاتها. ولم يكتفِ الصناع بعرض الساعات المختلفة الاشكال والاقدار مما يوضع في ابراج الكنائس والمباني العمومية ويقرع اجراساً موسيقية كبيرة عند حلول كل ساعة ونصف ساعة وربع ساعة الى ما يوضع في فصِّ الخاتم ولا يزيد على فلقة الحمصة حجماً. ومما صنع من الخشب والحديد الى ما صنع من الذهب ورُصِّع بالماس والياقوت — لم يكتفوا بذلك بل عرضوا الآلات التي تصنع بها ادوات الساعات المختلفة وعرضوا الوقّا والوف الوف من هذه الادوات فترى اللوالب مما لا يكاد يرى بالعين لصغره الى ما هو في غلظ الابهام والزنبلكات مما هو ادق من الشعرة الى ما هو اغلظ من الذراع وهي كثيرة جدًّا ولا سيما الصغير منها كأنَّ المراد بيعها بالاردبِّ

ولم يكتفوا بعرض الساعات الحديثة بل عرضوا مجاميع كثيرة من الساعات القديمة منها مجموعة فيها ستون ساعة ثمنها اثنا عشر الف جنيه وهي من القرن الخامس عشر الى الثامن عشر. وعرضوا ايضاً كثيرًا من الساعات الرملية والكرنومترات والساعات الفلكية والكهربائية والهوائية والمائية والآلات التي يقاس بها السير والوقت الموسيقي وما اشبه. ويظهر الفرق في دقة الساعات واحكام صنعتها من ان آلات ساعة الجيب يختلف ثمنها من ريال واحد الى مئتي جنيه. وعرضوا ايضاً اشكالاً كثيرة من الساعات الدقَّاقة التي تصمد في البيوت مما هو بسيط يُقصَد به الدلالة على الوقت لا غير الى ما هو في منتهى الزينة والزخرفة تحيط به تماثيل الملائكة والعذارى من الخشب او الحديد او النحاس او الفضة او الذهب وحوله وتحته اعمدة وعضائد من المرمر او المعدن الى غير ذلك مما يطول شرحه

الفصل السادس في المصنوعات من البرنز والحديد المسبوك والمطروق ويليهِ ثلاثة فصول الواحد في الادوات الجلدية كالسيور والمناطق والصناديق وما صنع من العيدان كالسلال والجوخ والاسفاط ومن الخلب والليف كالبرشّات والمماسح . والثاني في ما يُصنع من الصمغ الهندي والكتابرخا . وما يحتاج اليهِ في السفر من الصناديق والسروج والاسرّة . والثالث في الدُّمى واللعب وما اشبه . وقد تبارت امم الارض في هذه المصنوعات كلها كما تبارت في سائر ابواب المعرض وفصولهِ وتفنن الصنّاع في عمل التماثيل ووجدوا سبيلاً جديدًا للتفنن لم يخطر على بال اليونان والرومان ولا على بال المصريين والبابليين وهو فيض المصابيح الكهربائية فقد كان صنّاع التماثيل يضعون في يد التمثال سهمًا او قوسًا او رمحًا او نجمًا او بوقًا او مشعلاً فصاروا يضعون في يدهِ غصنًا ازهارهُ او اثمارهُ مصابيح كهربائية مختلفة الاشكال والالوان او يوقفونهُ في ظل اشجار من النحاس اثمارها المصابيح الكهربائية وصار لهم في ذلك اساليب شتى يضيق المقام عن وصفها

وعرض الروس واهالي اليابان من مسبوكات البرنز والحديد ما لا يقلُّ جمالاً واتقانًا عن مصنوعات الفرنسويين والايطاليين والبلجيكيين. ولا ندري كيف استتبَّ لهم ان يسبكوا الحديد حتى يخرج من القوالب صقيلاً يظهر فيهِ الشعر على دقتهِ . ولكن الصناعة ملك مشاع لا يشتهر بها قوم دون غيرهم . وقد كنت ارى تماثيل البرونز وافكر في تمثال الملك بيبي مربع الثالث من ملوك الدولة السادسة التي حكمت القطر المصري منذ خمسة آلاف سنة فاكثروهو الآن في المتحف المصري بالجيزة واقول في نفسي انهُ لو بقي سكان القطر المصري محتفظين بما كان لهم منذ خمسة آلاف سنة من البراعة في الصناعة وزادوا براعةً واتقانًا ولو شيئًا قليلاً كل مئة سنة ما كان احد من امم العالم يباريهم الآن ولكن غيَّر الدهر ونوائب الايام حوَّلت حالهم وقوَّضت اركان مجدهم فهل يحلُّ باوربا في مستقبل الازمان ما حلَّ ببلدان المشرق فتنقوض اركان عمرانها وتمسي معالمهُ اثرًا بعد عين او ان في عمرانها من الاصول الراسخة ما يكفل بحفظهِ ما دامت صالحة لسكن الانسان . هذه مسألة يحسن البحث فيها وكأنَّ الباب التالي من ابواب هذا المعرض وهو الباب السادس عشر فتح لحلها فان مدارهُ على المسائل الاجتماعية التي اذا أُهملت من بلاد اسرع الخراب والدمار اليها واذا أُعطيت حقَّها من الرعاية والاعتناء سهلت مداواة العلل التي تنتاب عمرانها من وقت الى آخر . وقد ظهر لي من النظر في معروضاتهِ ان فضلاء الاوربيين والاميركيين باذلون اقصى الجهد في مداواة علل العمران ونزع سوس الفساد منهُ وتعهدهِ بالعلاج الذي يكفل لهُ البقاء والنمو كما سأُوضحهُ في الفصل التالي